الفصل الثانى
اعتناق الخزر لليهودية

نتناول فى هذا الفصل اعتناق الخزر للدين اليهودى، وهو حادث تاريخى فاصل، واتخاذهم إياه دينا للدولة. وقد قال المؤرخ الإنجليزى المشهور بيورى فى ذلك: إن اعتناق الخزر لدين يهوذا الخالص حدث فريد فى التاريخ. فماذا كان الدافع إلى هذا الحدث الفريد؟.

فى أوائل القرن التاسع الميلادى كان العالم يستقطب قوتين عظميين تمثلان المسيحية والإسلام. وكانت إمبراطورية الخزر تمثل القوة الثالثة التى أثبتت أنها تقف منهما موقف الند للند عدوة كانت أو حليفة. على أن دولة الخزر لم تكن تستطيع أن تحافظ على استقلالها بالدخول فى المسيحية أو الإسلام. ذلك أن اختيار عقيدة منهما يخضعها إلى الإمبراطور الرومانى أو الخليفة فى بغداد.

ولم تتردد الإمبراطورية الرومانية ولا الخلافة فى بذل الجهود لتنصير الخزر أو حملهم على الإسلام، وإنما انتهى ذلك إلى تبادل المجاملات الدبلوماسية، والتصاهر بين الحكام، وانتقال التحالف من

جانب إلى جانب بحسب ما تقضى به المصلحة دون سواها. واعتمدت مملكة الخزر على قوتها هى والقبائل الخاضعة لنفوذها، واستقر بها العزم على أن تحافظ على موقعها قوة ثالثة وزعيمة لأمم الفيافى التى لم ترتبط بدين.

وفى هذه الأثناء تعلم الخزر من صلاتهم الوثيقة ببوزنطة والخلافة أن عقيدتهم الشامانية البدائية عقيدة همجية عفى عليها الزمن إذا هى قورنت بديانات التوحيد الكبرى، ثم هى عاجزة عن أن تضفى على زعماء الخزر السلطان الروحى والشرعى الذى ينعم به الخليفة والإمبراطور، ولذلك آثر الخزر أن يختاروا ديناً آخر غير النصرانية والإسلام، ومع ذلك فهو الأساس لكل منهما.

والحق أن اعتناق اليهودية كان يتطلب عملاً من أعمال العبقرية. على أن المصادر العربية والعبرية فى تاريخ هذا الاعتناق، وإن اختلفت فى التفصيلات، تتفق فى مذهبها فى تعليله كما أسلفنا، وكانت اليهودية ديناً له مقامه بين الأسفار المقدسة التى يعترف بها المسلمون والمسيحيون، وهو يرفع ملك الخزر فوق الهمج الوثنيين، ويؤمنه من تدخل الخليفة والإمبراطور، ولكنه لم يأخذ بتعصب العقيدة اليهودية، فقد أباح لجماهير شعبه أن يظلوا على وثنيتهم ويعبدوا أصنامهم.

صحيح أن تحول البلاط الخزرى إلى اليهودية كان الدافع إليه سياسيًا، إلا أنه ليس من المعقول أنه اعتنق هذا الدين بين يوم وليلة

وانقاد إليه انقيادًا أعمى دون أن يعرف شعائره وفروضه. والحق أن الخزر كانوا على معرفة وثيقة باليهود وشعائر دينهم قبل ذلك بقرن على الأقل، لأن اللاجئين الذين فروا بدينهم من اضطهاد بوزنطة كانوا يتقاطرون على بلاد الخزر حشودًا إثر حشود. وكان هذا هو الحال بدرجة أقل بالنسبة للمهاجرين من آسية الصغرى التى فتحها العرب. لقد كانت بلاد الخزر إذن المأوى الطبيعى للخروج اليهودى تحت وطأة الحكم البوزنطى والاضطهاد الدينى فى عهود الأباطرة يوستنيانوس الأول، وهرقل، وليو الثالث وبازل وليو الرابع ورومانوس. وقد قال المؤرخ العربى الكبير المسعودى فى ذلك:

«وفى هذه المدينة (أى إتل الخزر) خلق من المسلمين والنصارى واليهود وجاهلية، وأما اليهود فالملك وحاشيته والخزر من جنسه. وقد كان تهود ملك الخزر فى خلافة الرشيد، وقد انضاف إليه خلق من اليهود وردوا إليه من سائر أمصار المسلمين ومن بلاد الروم، وذلك أن ملك الروم فى وقتنا هذا - وهو سنة ٣٣٢ - وهو أرمنيوس نقل من كان فى ملكه من اليهود إلى دين النصرانية وأكرههم. فهرب خلق من اليهود من أرض الروم إلى أرض الخزر».

والعبارتان الأخيرتان من قول المسعودى - تشيران إلى حوادث وقعت قبل تحول الخزر إلى اليهودية، وتكشف لنا عن مبلغ

اضطهادهم. على أن كثيرًا من اليهود احتملوا التعذيب، ومن لم يحتمله منهم تنصر ثم عاد بعد ذلك إلى دينه.

***

ومن المعروف أن مهاجرى اليهود إلى بلاد الخزر قد جلبوا معهم فنوناً وحرفاً بوزنطية أرفع مما كنا نجده عند الخزر فى ميدان الزراعة والتجارة كما جلبوا حروف الهجاء العبرية المربعة. ونحن لا نعلم نوع الكتابة التى جرى عليها الخزر قبل ذلك، ولكن كتاب الفهرست لابن النديم يقول إن الخزر كانوا يستعملون حروف الهجاء العبرية، وانتشرت هذه الكتابة العبرية فبلغت جيران الخزر من الشعوب الصقلبية. وهكذا أدى تحول الخزر إلى اليهودية بما يتسم به من دهاء سياسى إلى تطورات ثقافية جاءت فى ركابه، واقترن اضمحلال دولة الخزر بعد ذلك بثلاثة قرون بفورات متكررة من الإرهاصات الصهيونية اقترنت بأسماء منتحلين للمسيح المنتظر أمثال دافيد له روا (بطل رواية كتبها دزرائيلى) يقودون حروبًا صليبية على طريقة دون كيخوته فى سبيل فتح أورشليم من جديد!

وظروف تحول الخزر إلى اليهودية قد غشتها الأساطير، ولكن الأوصاف التى جاء بها العرب والعبريون واحدة فى سماتها الأساسية.

وقد سبق أن أوردنا قول المسعودى فى ذلك، وقد ختم قوله هذا بالإشارة إلى كتاب له سابق تضمن وصفاً لهذه الظروف وفقد هذا

الكتاب، إلا أنه بقى ماثلا فى كتابين: الأول الدمشقى وهو يردد أن الإمبراطور البوزنطى فى أيام هارون الرشيد قد أجبر اليهود على الهجرة، وقد قدم هؤلاء المهاجرون إلى بلاد الخزر فوجدوا جنسًا فطنًا وإن كان غير متعلم، فعرضوا عليه دينهم. ووجد أهل البلاد أن هذا الدين أفضل من دينهم فاعتنقوه.

والكتاب الثانى هو البكرى الذى تحدث فى مؤلفه «المسالك والممالك» عن هذه الظروف تفصيلا فقال: إن السبب فى اعتناق ملك الخزر اليهودية - وكان من قبل وثنيًا - هو أنه كان قد تنصر، ثم تبين كذب النصرانية وأهمه الأمر فراح يناقشه مع احد كبار عماله، فقال له هذا العامل إن أصحاب الكتب المقدسة ثلاث طوائف، وأشار عليه بأن يدعو أصحاب هذه الكتب ويتبع من كان منهم على الحق، وأرسل الملك فى طلب أسقف من النصارى. وكان فى صحبة الملك يهودى بارع الحجة فسأل الأسقف ما قولك فى موسى ابن عمران والتوراة التى نزلت عليه؟ فأجابه الأسقف. إن موسى رسول والتوراة تخبر بالحق. وهنا وجه اليهودى حديثه إلى الملك قائلا إن الأسقف قد سلم بصدق دينى فاسأله إذن عن دينه. فسأله الملك فأجاب بأن عيسى المسيح هو ابن مريم وهو الكلمة، وقد كشف عن أسرار اسم الله. وعندئذ قال اليهودى لملك الخزر إن الأسقف يدعو إلى دين لا علم لى به، على أنه يسلم بدينى. غير أن النصرانى لم يكن قويًا فى الأدلاء بحجته فأرسل الملك فى طلب مسلم، فسيروا إليه

فقيهًا متمكنًا بارعًا يجيد الجدل، ولكن اليهودى استأجر رجلاً دس له السم وهو سائر فى رحلته إلى الملك، فقضى نحبه. وهكذا نجح اليهودى فى استمالة الملك إلى دينه حتى اعتنق اليهودية.

ولا شك أن مؤرخى العرب قد رزقوا موهبة إضفاء الخيال على الوقائع، وهذه القصة تتضمن - كما قال المؤرخ بيورى المشهور - أن بلاط الخزر كان متأثرًا تأثرًا قويًا باليهودية قبل أن يتهود رسميًا، ذلك أن رجل الدين المسيحى ورجل الدين المسلم قد أرسل الملك فى طلبهما، أما اليهودى فكان بالفعل فى صحبته.

***

وننتقل الآن من المصادر العربية الكبرى التى تحدثت عن تهوّد الخزر، إلى المصدر اليهودى الأساسى، وهذا المصدر هو ما يعرف باسم «الرسائل الخزرية» وهى رسائل تبودلت بالعبرية بين حسداى بن شربوت، كبير الوزراء اليهودى لخليفة قرطبة والملك يوسف ملك الخزر، وحجية هذه الرسائل موضع خلاف، وإن كنا الآن نسلم بها بعامة مع الاعتراف بجواز أن تكون فيها أخطاء وقع فيها النساخ المتأخرون.

والظاهر أن هذه الرسائل تبودلت بعد سنة ٩٥٤م وقبل سنة ٩٦١م أى حوالى الوقت الذى كتب فيه المسعودى كتابه. وكان حسداى هذا ألمع شخصية فى «العصر الذهبى» (٩٠٠ - ١٢٠٠م) لليهود فى الأندلس.

***

ففى سنة ٩٢٩م استطاع عبد الرحمن الثالث من البيت الأموى الحاكم أن يوحد أملاك غرب المغرب فى النواحى الجنوبية والشمالية من شبه الجزيرة الأيبيرية ويخضعها لسلطانه وأقام الخلافة العربية، وأصبحت قصبة ملكه قرطبة مفخرة الأندلس العربية، ومونلا للحضارة الأوربية، وقامت بها مكتبة من أربعمائة الف مجلد. أما حسداى فقد ولد فى قرطبة سنة ٩١٠ لأسرة يهودية بارزة، واستطاع أن يثير انتباه الخليفة بممارسته للطب ومعرفته ببعض الأدوية المشهورة. فاتخذه عبد الرحمن طبيبًا يطب لبلاطه ووثق ثقة عظيمة فى حكمته حتى دعاه أول الأمر لتنظيم أموال الدولة ثم أقامه وزيرا لخارجيته يدلى بدلوه فى مسارب المعاملات الديبلوماسية المعقدة للخلافة مع بوزنطة، والإمبراطور الألمانى أوتو وقشتالة ونبرة وارغون وغير ذلك من الممالك النصرانية فى شمالى إسبانيا، ومع مشاغله الجمة هذه وجد وقتا لنقل الكتب الطبية إلى العربية ومراسلة أحبار بغداد والحكم بين النحويين والشعراء اليهود.

ومن الواضح أن هذا الرجل كان يهوديًا متنورًا غيورًا على دينه، استغل صلاته الديبلوماسية فى جمع المعلومات عن الجماعات اليهودية المتفرقة فى شتى أنحاء العالم والتدخل لمصلحتهم كلما وجد إلى ذلك سبيلا. وقد عنى حسداى خاصة باضطهاد اليهود فى الإمبراطورية البوزنطية فى عهد رومانوس.. ومن حسن توفيقه أنه

كان له نفوذ كبير فى البلاط البوزنطى ذلك البلاط الذى كان مهتمًا اهتمامًا حيويًا بضمان حياد قرطبة فى أثناء الحملات البوزنطية على المسلمين فى الشرق، وانتهز حسداى الذى كان يقود المفاوضات الدائرة بين الأمويين فى الأندلس وبوزنطة، الفرصة للتدخل فى مصلحة الشعب اليهودى فى بوزنطة، وقد حقق نجاحًا فى ذلك.

ويروى حسداى نفسه أنه سمع أول ما سمع بوجود مملكة يهودية مستقلة من بعض تجار من خرسان ببلاد فارس، فشك فى صدق رواياتهم. وسأل من بعد أعضاء بعثة ديبلوماسية بوزنطية أرسلت إلى قرطبة، فأكدوا رواية هؤلاء التجار وزودوه بقدر كبير من الوقائع المفصلة عن مملكة الخزر بما فى ذلك ملكهم الذى كان يحكم وقت ذاك وهو يوسف. ولذلك عزم حسداى على إرسال بعض رجال البلاط إلى الخزر يحملون رسالة إلى هذا الملك. وقد تضمنت هذه الرسالة عدة أسئلة عن دولة الخزر وشعبها وأسلوب حكمها، وقواتها المسلحة وما إلى ذلك، واشتملت الأسئلة أيضًا على سؤال عن أية قبيلة من القبائل الاثنتى عشرة ينتسب الملك. ويبدو من هذا أن حسداى ظن أن الخزر اليهود قد خرجوا من فلسطين شأنهم شأن يهود الأندلس، وأنهم ربما كانوا يمثلون قبيلة من القبائل المفقودة. ولا شك فى أن يوسف لم يكن ينتسب إلى أية قبيلة من هذه القبائل لأنه لم يكن يهودى الأصل والأجداد. وقد أتى يوسف فى رده على

حسداى بنسب من نوع آخر، ولكنه صرف همه فى رسالته إلى موافاة الوزير اليهودى بوصف مفصل، وإن يكن أسطوريًا لدخول الخزر فى اليهودية الذى حدث قبل ذلك بقرنين من الزمان والظروف التى أدت إليه.

ويقول الملك يوسف فى رسالته إلى حسداى:

«إنه تراءى له فى أحلامه مَلَك نصحه بأن يعبد الإله الواحد الحق فيجزيه بمباركة أولاده والإكثار من نسله والظفر بأعدائه وجعل مملكته تدوم حتى نهاية هذا العالم» وهذا بطبيعة الحال من وحى القصة الواردة فى سفر التكوين، ويتضمن أن الخزر أيضًا قد زعموا أنهم «شعب مختار» قد عاهدوا الرب، ولو أنهم لم يكونوا من نسل إبراهيم، ولكن يوسف عند هذا الحد من القصة يتجه اتجاهًا آخر غير متوقع، إذ قال إن الملك بولان كانت نيته قد صحت على أن يطيع الله، غير أنه يثير مشكلة فى هذا السبيل.

«وأنت تعلم يارب ما يكنه قلبى وقد تغلغلت فيما تنطوى عليه جوانحى فعلمت أننى عليك توكلت، ولكن قومى الذين أتولى أمرهم قد نزعت عقولهم إلى الشرك ولست أدرى أيؤمنون بى أم لا يؤمنون؟. وإنى إذ أجد فى وجهك الرضا والرحمة، فإنى أسالك أن تتجلى أيضًا للأمير الأكبر حتى تجعله يمدنى بتأييده».

وأجاب المولى الباقى سؤل بولان فتجلى لهذا الأمير فى الحلم، فما استيقظ من نومه فى الصباح حتى شخص إلى الملك وأخبره بما رأى.

ولم يرد فى سفر التكوين ولا فى أخبار العرب عن اعتناق الخزر لليهودية شىء عن وجود أمير أكبر يجب الحصول على رضاه، ولا شك أن ذلك يدل على أنه كان على الخزر عاهلان. والأمير الأكبر هو فيما يبدو «الأمير» هو القاغان.

ويمضى يوسف فى رسالته فيروى كيف تجلى له الملك مرة أخرى فى منامه ودعاه إلى إقامة مكان للعبادة يحل فيه الرب ذلك أن «السماء والسموات التى فوقها لا تتسع لى». ورد بولان عليه فى استحياء بأنه لا يملك الذهب ولا الفضة اللذين يعيناه على القيام بذلك ولو أن الواجب والرغبة يقتضيان النهوض بهذا «العمل» وهناك أكد له الملك أن كل ما يجب على بولان فعله هو أن يقود جيوشه إلى دربال وأردبيل فى أرمينية حيث يوجد كنز من الذهب والفضة ينتظره. وهذا ينطبق على حملة بولان أو بول خان التى سبقت دخول الخزر فى اليهودية كما يتفق مع المصادر العربية التى روت أنه كان للخزر مناجم للذهب فى القوقاز. وفعل يوسف ما أشار به عليه الملك وعاد من حملته محملا بالغنائم وأقام هيكلا مقدسا مجهزا بصندوق مبارك (تابوت العهد) وشمعدان، ومذبح وأدوات مقدسة حفظت إلى اليوم ولا تزال بعد فى حوزتى (أى فى حوزة الملك يوسف).

وتجمع رسالة الملك يوسف بين الحقيقة والخيال، وهى إلى هذا الحد تعد مدخلا إلى القصة الحقيقية لدخول الخزر فى اليهودية.

وهكذا نجد بين أيدينا مائدة مستديرة على غرار ما ذكر المسعودى مع فارق هو أن المسلم لم يدس له السم من قبل.

***

هذا فيما يتعلق باعتناق الخزر اليهودية. ثم نتساءل عما جاء فى الرسائل الخزرية المشهورة بعد ذلك. ونبدأ برسالة حسداى أولا فنجدها تتضمن حديثاً عن ازدهار إسبانيا فى عهد العرب، وأن اليهود عاشوا فى كنفها فى رخاء وعز لم يعهدوا لهما مثيلا من قبل، ثم يتحدث حسداى عن الكيفية التى عرف بها المملكة اليهودية المعهودة من تجار خراسان، ثم من رسل بوزنطة الذين زادوه تفصيلا عن شئونها. ولا شك فى أن المعلومات التى ذكرها حسداى فى رسالته عن الملك يوسف كان الغرض منها إغراء الملك بالإفاضة فى ذكر أحوال مملكته فى رده على حسداى.

وذكر حسداى بعد ذلك محاولته السابقة لمعرفة أخبار دولة الخزر وبلاط ملكها يوسف، وكيف بعث رسولا بتعليمات تقتضيه أن يمضى فى رحلته حتى يبلغ بلاط الخزر، ولكن الرسول بلغ القسطنطينية فحسب حيث عومل معاملة طيبة ولكنه منع من المضى فى رحلته، ذلك أن الإمبراطور البوزنطى لم يكن يحب أن

ييسر قيام تحالف بين بلاد الخزر وخلافة قرطبة التى كان وزيرها الأكبر يهوديًا، ومن ثم عاد رسول حسداى إلى الأندلس دون أن يتم رسالته.

ومضى حسداى فى رسالته يسأل طائفة من الأسئلة المباشرة تكشف عن حرصه على الاستزادة من المعلومات عن كل وجه من وجوه الحياة فى أرض الخزر وجغرافيتها وشعائرها وموقفها من يوم السبت، والفقرات الأخيرة من هذه الرسالة تباين كل المباينة الفقرات التى استهلت بها:

«إنى لأشعر بحافز يدفعنى إلى معرفة الحقيقة: هل يوجد حقًا مكان على ظهر الأرض يستطيع فيه اليهود المنهكون أن يحكموا انفسهم فلا يخضعون لأحد. لو قيض لى أن أعلم بوجود هذا المكان حقًا وصدقًا لما ترددت فى التضحية بكل ألقاب الشرف التى أحملها، والاستقالة من منصبى الجليل تاركًا أهلى وماضيًا فى رحلتى أعبر الجبال وأقطع السهول ضاربًا فى اليابسة، خائضًا الماء، حتى أبلغ البلاد التى يحكمها مولاى الملك (اليهودى).. ولى بعدُ رجاء آخر هو أن أعرف هل لدى مولاى علم بالتاريخ المحتمل للهجرة الأخيرة (أى ظهور المسيح) التى ننتظرها ونحن نجوب الأرض من بلد إلى بلد. ويحق علينا - فى ذلتنا وخضوعنا اللذين نعانى منهما فى تشردنا - أن نصغى فى صمت إلى أولئك الذين يقولون.. لكل أمة أرضها وأنتم دون سواكم لا تملكون حتى الشبح من أرض على وجه هذه البسيطة».

وكان رد الملك يوسف على رسالة حسداى أقل عاطفة وشجنا مما بدا فى رسالة حسداى إليه. وقد فسر ذلك بأن العلم والثقافة لم يكونا سائدين بين يهود الفولجا، وإنما كانا يلتمسان على أنهار الأندلس.

وتبدأ رسالة الملك يوسف بتحيات فخمة رنانة، ثم تردد مطالب حسداى منوهة فى فخر واعتزاز بأن مملكة الخزر تكذب من يقولون إن «صولجان يهوذا قد سقط إلى الأبد من أيدى اليهود، ومن يقولون: إنه لا مكان على وجه البسيطة لمملكة خاصة بهم».

* * *

ثم يعقب يوسف بذكر مثل قومه، وهو بالرغم من إيمانه الشديد بقوميته اليهودية واعتزازه بقيامه على «صولجان يهوذا» فإنه لم يستطع أن يزعم أنه من نسل سامىّ وهو يرجع أصل اليهود إلى ابن نوح الثالث يافث ولا يرجعه إلى سام.

وبعد هذه النسبة يذكر يوسف فى اختصار بعض الفتوح التى قام بها أجداده وأوصلتهم إلى الدانوب، ثم يروى بالتفصيل قصة دخول بولان فى اليهودية ثم يدلى بهذه العبارة ذات المغزى:

«وبعد هذه الحوادث أصبح أحد حفدة بولان ملكًا وكان اسمه عُبديه، وكان شجاعًا، وقورًا، أصلح الأحكام، ودعم القانون على أساس من السنة ومألوف العادة، وأقام المعابد والمدارس، وجمع جمعًا

من حكماء إسرائيل، وأغدق عليهم الذهب والفضة، وجعلهم يفسرون الكتب المقدسة الأربعة والعشرين، والمشنا، والتلمود، وترتيب الطقوس التى تتلى».

وهذا يدل على أنه حدثت بعد بولان بعدة أجيال، نهضة دينية أو إصلاح، وربما اقترن هذا الإصلاح بانقلاب على نحو ما تصور الأستاذ ارتامونوف، ويبدو أن دخول الخزر فى اليهودية تم على عدة مراحل. ونحن نذكر أن الملك بولان طرد «السحرة والمشركين» قبل أن يظهر له المَلَك وأقام العهد مع «الإله الحق» قبل أن يقرر إله اليهود هو أم النصارى أم المسلمون. وأغلب الظن أن تهوُّد الملك بولان وأتباعه كان مرحلة وَسطًا أخرى، وأنهم اعتنقوا صورة بدائية من اليهودية تقوم على التوراة دون سواها مع استبعاد التلمود وكل الكتب الربانية والشعائر المستقاة منها. وهم فى ذلك يشبهون القرائين وهم فرقة كبيرة يرجع أصلها إلى القرن الثامن الميلادى فى بلاد فارس، وانتشرت بين اليهود فى جميع أرجاء العالم وخاصة فى «بلاد الخزر الصغرى» فى أثناء الإصلاح الدينى الذى قام به عبديه. وهذه النقطة لها بعض الأهمية لأن مذهب القرائين قد بقى فيما يظهر ببلاد الخزر حتى النهاية، ولا تزال قرى من اليهود القرائين المتحدثين بالتركية توجد فى العصور الحديثة.

وبعد أن ذكر يوسف الإصلاحات الدينية التى قام بها عبديه أورد قائمة بأسماء خلفائه. ثم حاول أن يجيب عن أسئلة حسداى

عن حجم مملكة الخزر وطبيعة أرضها، وزعم يوسف أنه كان يجمع الجزية من سبع وثلاثين أمة، وفى هذا مغالاة، إلا أن دنلوب يقول: إن تسع أمم منها كانت فيما يظهر قبائل تعيش فى قلب الخزر، أما الثمانى والعشرون الأخرى فتنطبق على قول ابن فضلان بأنه كانت له خمس وعشرون زوجة كل منها ابنة ملك من الخاضعين. ولا يتحدث يوسف عن زوجات له كثيرة وإنما يتحدث عن زوجة واحدة وجواريها وخصيانها.

وخص الملك تاريخ ظهور المسيح بالفقرة التالية:

إن عيوننا على حكماء أورشليم وبابل، ونحن وإن كنا نعيش بعيدًا عن صهيون، فإننا قد سمعنا مع ذلك بأن الحسابات مخطئة لوفرة الآثام ونحن لا نعلم شيئاً وإنما الباقى هو الذى يعلم كيف يتولى الحساب، وليس لدينا ما نستند إليه إلا نبوءات دنيال ونسأل الله أن يعجّل بخلاصنا!! وختم الملك يوسف رسالته بالإجابة عن طلب حسداى الدخول فى خدمة ملك الخزر!!

ويظهر يوسف بمظهر الحامى لخلافة بغداد من غارات النورمان الروس. وقد يبدو ذلك منه بعيدًا عن الكياسة، لأن الخلافة الأموية فى قرطبة (وكان حسداى فى خدمتها) كان بينها وبين الخلافة العباسية فى بغداد عداوة شديدة.

ومن المصادر العبرية الأخرى نجد «وثيقة كمبردج» (سميت بذلك لأنها محفوظة الآن فى مكتبة هذه الجامعة) وقد كُشف

عنها فى أواخر القرن الماضى هى ووثائق أخرى لا تقدر بمال فى كنيس اليهود بالقاهرة. والوثيقة حالتها سيئة، وهى رسالة، أو نسخة من رسالة، من مائة سطر بالعبرية أو نحو ذلك، أولها مفقود وآخرها مفقود، ولذلك فإن من المستحيل أن نعرف من كتبها وإلى من كُتبت. وجاء فيها ذكر الملك باعتباره معاصرًا ويشار إليه بمولاى، وإلى بلاد الخزر ببلادنا، ونخرج من ذلك بأن الرسالة كتبها يهودى خزرى من رجال البلاط أيام الملك يوسف، أى إن هذه الوثيقة معاصرة للرسائل الخزرية.

وهذه الرسالة تتضمن خبرًا آخر أسطوريًا عن اعتناق الخزر لليهودية، ولكن مغزاها الأول سياسى. فكاتبها يتحدث عن هجوم شنه اللان على بلاد الخزر بتحريض البوزنطيين.

وبعد حوالى قرن من الرسائل الخزرية والتاريخ المزعوم لوثيقة كمبردج، كتب يهوذا هاليفى كتابه الذى كان مشهورًا وهو «كوزارى» أى الخزر ويعد هاليفى (١٠٨٥ - ١١٤١م) بعامة أعظم شاعر عبرى فى إسبانيا. وقد كتب هذا الكتاب بالعربية وترجم من بعد إلى العبرية.

وكان هاليفى صهيونيًا لقى ربه فى حجة لبيت المقدس، وكتابه الذى كتبه قبل أن يموت بسنة واحدة رسالة فلسفية تبسط الرأى الذى يقول: إن الأمة اليهودية هى الوسيط الوحيد بين الله وسائر البشر، وسوف تعتنق الأمم جميعًا الدين اليهودى فى آخر

الزمان. ويبدو دخول الخزر فى اليهودية علامة على هذا الحادث الذى ليس بعده حادث. والكتاب بالرغم من عنوانه لا يقول إلا القليل عن بلاد الخزر نفسها، وإنما يصلح فى جوهره أساسًا لخبر أسطورى عن اعتناق الخزر لليهودية أى هو يحكى عن الملك والملك والحبر اليهودى.. إلخ، ويتحدث عن المحاولات الفلسفية التى دارت بين أنصار الديانات الثلاث.

على أنه لا توجد إلا إشارات واقعية قليلة تدل على أن هاليفى لم يقرأ الرسائل الخزرية بين حسداى والملك يوسف أو أنه كانت بين يديه مصادر أخرى عن بلاد الخزر. ثم إن هاليفى يذكر آخر الأمر فى موضعين من كتابه أن تاريخ دخول الخزر فى اليهودية وقع منذ أربعين سنة، وفى سنة ٤٥٠٠ (من التقويم اليهودى) وهذا يشير إلى سنة ٧٤٠م، وهو أكثر التواريخ احتمالا.

***

ويصدق هذا أيضا على الرحالة الألمانى اليهودى المشهور الحاخام بتاخيا الراتسبونى الذى زار أوربا الشرقية وآسيا الغربية بين سنتى ١١٧٠ و ١١٨٥م. والظاهر أن وصف رحلته حول العالم كتبها تلميذ له، وهو يروى كيف روع الحاخام الطيب لدى رؤيته الشعائر البدائية لليهود الخزر شمالى القرم، ونسب ذلك إلى اتباعهم لزندقة القرائين.

وهو يذكر أيضًا أنه رأى، وهو فى بغداد، رسل مملكة الخزر يبحثون عن المحتاجين من اليهود القادمين من الجزيرة ومن مصر «ليعلموا أولادهم التوراة والتلمود».

وثمة عدد قليل من الرحالة الغربيين الذين تجشموا الرحلة إلى الفولجا، وقد ذكروا أنهم صادفوا اليهود الخزر فى جميع الحواضر الكبرى للعالم المتحضر. وصفوة القول أن المرء يحس فى المصادر العبرية التى انتهت إلينا عن دخول الخزر فى اليهودية آثارًا هى مزيج من الغيرة والشك والحيرة. ذلك أن أمة محاربة من اليهود الترك كانت تبدو فى نظر الأحبار عجيبة كالحيوان الخرافى وحيد القرن المختتن. فاليهود الذين مضى عليهم ألف سنة مشردين بلا مأوى قد نسوا ما يكون عليه حالهم إذا تولى أمرهم ملك وكانت لهم أرض خاصة بهم. ولذلك فإن المسيح المنتظر كان أقرب إلى الواقع عندهم من الخاقان.

***

وإلحاقًا بما ذكرته المصادر العربية والعبرية عن تهوّد الخزر يجب أن نذكر أن أقدم مصدر مسيحى فيما يظهر يأتى قبل هذه المصادر. ففى تاريخ سابق على سنة ٨٦٤م كتب القس ستفانى كريستيان دروتمار رسالة باللاتينية ذكر فيها أنه «يعيش قوم تحت قبة السماء فى أقطار لا يوجد فيها مسيحيون، واسم هؤلاء

القوم ياجوج وماجوج، وهم من الهون، ومن بينهم واحد يقال له الخزرى، وهو مختتن ويتبع اليهودية بجميع ما فيها».

وقرابة ذلك الوقت كتب دروتمار ما علمه من زندقة الخزر اليهود، وكان هذا الرجل مبعوثاً مسيحيًا مشهورًا أرسله الإمبراطور البوزنطى ليهدى الخزر إلى المسيحية، ولم يكن دروتمار بأقل شاناً من القديس سيريل «نبى الصقالبة» وهو الذى يقال: إنه وضع الحروف الهجائية السيريلية. وقد وكل إليه الإمبراطور ميخائيل الثالث هو وأخيه الأكبر القديس ميثوديوس أن يقوما بهذه المهمة وغيرها من المهام الكنسية نزولا على نصيحة البطرق فوتيوس الذى كان فيما يبدو من أصل خزرى.